مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية المجلد (٢١) العدد الأول أذار ٢٠٢٦

Kirkuk University Journal: Humanity Studies

مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية

ISSN P: 1992-1179
ISSN E: 3107-3360

https://kujhs.uokirkuk.edu.iq

DOI: 10.32894/1992-1179.2026.168232.1330

Excaationvs in Myth and History: A Novel of "Al -Nasri Sequence" by Jasim Assi That was Mythologized

Lect.PhD. Wajida Mahmoud Khalaf

Wajidamahmud@uokirkuk.edu.iq

Date of research received 04/01/2026, Revise date 28/01/2026, accepted date 05/03/2026, Online Publishing15/3/2026

Abstract

Objectives: This study aims to clarify the role of the writer in transforming Facts of life into mythical symbols, transcending natural realism, with his narrative imagination that gave his text a mythical character, despite its lack of direct mythical character Methods: The study relied on the mythological approach based on deconstructing the text, interpreting it, and extrapolating its hidden meanings. Results: Therefore, I decided to trace the events of the novel, which emerge from realistic facts that worked to construct the narrative imagination, with a vision that transcended the familiar to the world of imagination, which works to transform facts into mythical symbols employed by the author, giving his narrative text an aesthetic and artistic dimension.

Conclusion: study that embodies the writer's ability to draw inspiration from facts and reconstruct another imaginary world that transcends reality in the process of creating and innovating a mythical text based on human history. He desires to mythologize reality and reshape it in an artistic image that gives it mythical dimensions with a vision that transcends the boundaries of reality and leans towards imagination, which makes the narrative text richer and closer to imagination than to reality, The narrative style chosen by Jassim Asi to present the events of his book is distinguished by its ability to keep pace with both reality and imagination, which reflects his vision and describes his approach to dealing with realistic issues and ways of revealing them to the reader.

Key words: myth, legend, imagination

مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية المجلد (٢١) العدد الأول أذار ٢٠٢٦

حفريات في الأسطورة والتاريخ رواية متوالية الناصري لجاسم عاصي المؤسطرة

م.د واجده محمود خلف*

تاريخ الإرسال ٢٠٢٦/١/٠٤ ، تاريخ التعديل ٢٠٢٦/٠١/٢٨ ، تاريخ القبول ٢٠٢٦/٣/٠٥ ، تاريخ النشر ٢٠٢٦/٣/١٥

الملخص

الأهداف: تهدف هذه الدراسة إلى توضيح دور الكاتب في تحويل الوقائع الحياتية إلى رموز أسطورية، متجاوزاً الواقعية الطبيعية، بخياله السردي الذي أضفى على نصه طابعاً أسطورياً، على الرغم من خلوه من الشخصيات الأسطورية المباشرة. المنهجية: الدراسة اعتمدت على المنهج الأسطوري القائم على تفكيك النص، وتأويله واستقراء خفاياه. النتائج: تتبعت الدراسة أحداث الرواية المنبثقة من حقائق واقعية عملت على تشييد المتخيل السردي، برؤية جاوزت المألوف إلى عالم الخيال، الذي يعمل على تحويل الحقائق إلى رموز أسطورية وظفها الكاتب؛ مانحاً نصه السردي بعداً جمالياً وفنياً.

الخلاصة: تخلص الدراسة إلى أنَّ رواية "متوالية الناصري" جسدت قدرة الكاتب على استلهام الحقائق، وإعادة بناء عالم متخيل يتجاوز الواقع في عملية خلقٍ وابتكارٍ لنصٍ أسطوري منطلقه تاريخ الإنسان؛ رغبةً منه في أسطرة الواقع، وإعادة تشكيله بصورة فنية تكسبه أبعاداً أسطورية برؤية تتعدى حدود الواقع وتجنح نحو الخيال، مما جعل النص السردي أكثرَ ثراءً وأقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، فالأسلوب السردي الذي اختاره (جاسم عاصي) لتقديم أحداث مؤلفه يمتاز بمجاراة الواقع والخيال على حدٍ سواء، الأمر الذي يعكس رؤيته، ويصف أسلوبه في معالجة القضايا الواقعية وطرق كشفها للقارئ.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، الأسطرة، الخيال.

المقدمة:

تُعدُّ "متوالية الناصري" للأديب جاسم عاصي نتاجاً أدبياً استمدَّ أحداثه من الواقع المعاش آنذاك، متخذاً من الأحداث والوقائع التاريخية التي حدثت في تلك الفترة –قبل عشرات السنين– مادةً لشحذ مخيلته. إذ يتضح جلياً الأسلوب الأدبي الذي انتهجه الكاتب في روايته التي تحفل بتماهي الواقع مع الخيال؛ حيث أطلق العنان لمخيلته في صياغة الأحداث، وبناء حبكته. إنَّ هذا المتخيل السردي الذي سار عليه الكاتب منح الرواية عمقاً فنياً وأدبياً، وقد نجح في إيهام القارئ بواقعية ما يقرأ.

*كلية التربية الأساسية/ قسم رياض الأطفال/ جامعة كركوك Wajidamahmud@uokirkuk.edu.iq

وقد ارتأينا الوقوف على ما تمخض عن هذا التماهي، من أحداثٍ نسجتها مخيلة الكاتب؛ ليخرجها من المألوف إلى غير المألوف، بوصفها مؤشراً حقق انسياباً سردياً، وفيضاً معرفياً تسلَّل إلى ذاكرة الذات الكاتبة؛ فصوَّرت حالَ المجتمعات بخيالٍ جامحٍ، مستحضرةً شخصياتٍ وأحداثاً انقادت لسلطتها وتدفق مخيلتها التي حاكت بخيوطها لُحمة النص.

وعليه، فقد اتخذ الكاتب من الفن سبيلاً للإفصاح عن نظرته للواقع آنذاك، كاشفاً عن حقائق تلبَّست ثوب الخيال في زمنٍ ضاعت فيه إنسانية الإنسان وخيَّم الجهلُ عليه، فكان جنوب العراق ساحته التي أفسح فيها المجال أمام مخيلته، لتبعد الحقائق عن منطق التصديق، وبمنهجية أسطورية عملت على اضفاء بعداً أسطورياً على الأحداث الحياتية، وقد تجلى هذا البعد الأسطوري في الرواية من خلال مجموعة علامات دالة مثل: تشخيص الطبيعة ومنحها فاعلية توحي بامتلاكها إرادة مستقلة، أو الإيمان بالمعتقدات الخرافية التي تمنح الجمادات قوة خارقة، قادرة على البطش والانتقام، من جانبٍ آخر يظهر البعد الأسطوري في الرواية من تحدي الانسان لظواهر الكون الطبيعية وتغلبه عليها، وقد يجئ بصورة كائنات خرافية بمزايا خيالية تفوق قدرة البشر، وهي بهذا _ أي المخيلة_ تترك للخيال دفع عجلة السرد بعيداً عن الواقع المألوف الذي انبثقت منه تلك الوقائع بمستوياتها التاريخية والاجتماعية والثقافية كافة، كاشفةً خباياها الضبابية.

هذا البعد الأسطوري جيء به لا لغاية فنية جمالية فحسب، بل من أجل منح النص طاقة تأويلية رحبة، تفسح المجال أمام الناقد الأسطوري لتأويل النص واستقراء خفاياه، خاصةً أنَّ النقد الأسطوري امتداداً للنقد الأدبي الحديث، على الرغم من أنه انبثق من أصولٍ موغلةٍ في القدم.

وقد سعينا في دراستنا هذه إلى الإجابة عن بعض الأسئلة التي قد تراود القارئ، ومنها:

١- ما المقصود بالأسطرة، وكيف تشكلت من الواقع المعيش؟
٢- ما الغاية من توسيع دائرة الحدث المروي؟
٣- كيف وظف الكاتب الحقائق الواقعية في بناء نصٍ أسطوري؟

ثمة دراسات عديدة تناولت موضوع الأسطورة في الأدب، منها: (الأدب والأسطورة لمحمد شاهين، والأساطير لأحمد زكي، والأسطورة عند العرب: جذور التفكير وأصالة الإبداع

لفاروق خورشيد، وتوظيف الأسطورة في القصة القصير لفرج ياسين) وغيرها الكثير؛ غير أنَّ تلك الدراسات ركزت على مسألة توظيف الأسطورة الجاهزة في النص الأدبي، أما في دراستنا هذه، فقد عملنا على بيان كيفية صياغة الكاتب لنصِّه الأسطوري الخاص انطلاقاً من حقائق واقعية، عبر توسيع دائرة الحدث المروي. وقد اتبعنا في هذه الدراسة المنهج الأسطوري في تحليل النصوص؛ بغية الوصول إلى الأهداف المنشودة.

تكمن أهمية البحث في كون الأسطورة من الوسائل الرمزية المهمة التي تتيح للأدباء التعبير عما تختزنه ذاكرتهم من وقائع وأحداث ينأون عن الإفصاح عنها بصورة مباشرة، فكان الرمز أو الأسطورة وسيلتهم الأثيرة في نتاجهم الأدبي.

وقد قُسِّمت خطة الدراسة إلى قسمين: القسم الأول: الإطار التنظيري، وتناولنا فيه بعض المفاهيم التي تدور في فضاء الدراسة للوقوف على مدلولاتها، ثم انتقلنا إلى إيضاح العلاقة الجدلية بين الأدب والواقع، وبعدها بيَّنا الكيفية التي يتكئ فيها الأدب على الواقع، موضحين الفرق بين المحاكاة وإعادة إنتاج الظواهر الواقعية والتاريخية بقالب أدبي.

أما القسم الثاني، فقد أفردناه للإطار التطبيقي، معتمدين فيه على نصوص مقتبسة من الرواية؛ لإيضاح الكيفية التي سلكها الكاتب في أسطرة الأحداث الواقعية، واختُتم البحث بجملة من النتائج التي توصلنا إليها.

أولاً/ الإطار التنظيري

يبقى الخيال منبعاً خصباً، وعنصراً فعالاً في النص الأدبي؛ إذ يعالق الأحداث والظواهر الواقعية، ويرتبط معها ذهنياً وصورياً. وفي جموحه، يعمل على نقل الحدث الحقيقي من المألوف إلى غير المألوف، فتتسع دائرة المخيلة، الأمر الذي يجعل الأديبَ قادراً على الخلق الفني وإعادة التصور الذهني للحدث الماثل أمامه، ليخرج لنا بنصٍ جديد نابعٍ من عمل المخيلة، بعيداً عن محاكاة الواقع حرفياً. وهذا واحدٌ من أساليب الكُتَّابِ في توظيف الأساطير في كتاباتهم الأدبية؛ عندما يعمد الكاتب إلى خلق وابتكار أسطورة جديدة لا علاقة لها بالقصص الأسطوري الموروث (محمد، ٢٠٢٠، صفحة ٢٨).

إنَّ رصد الأحداث الواقعية وكشف دلالتها بصورة أدبية، ونسج خيوطها فنياً؛ يخلقُ طرقاً للكتابة تؤطِّر تلك الأحداث، لتعيد لُحمتها من جديد على وفق عمل المخيلة، وهي تمتحُ من الماضي مرةً، ومستعينةً بالتاريخ أخرى، لتشيِّد لنا نصاً تخييلياً لَبِنَتُهُ الواقع بعملية سردية إبداعية ركيزتها الذاكرة التي تعمل على استحضار ما مرَّت به سابقاً. خاصةً أنَّ السرد عند (عبد الله إبراهيم) هو من الوسائل الجبارة التي تعمل على نسج الأحداث المتخيلة وتكييف الأحداث الواقعية، وهو – والقول له – بمثابة أداة بحث يمكن بواسطتها استكشاف العالم والتاريخ والإنسان. (ابراهيم، ٢٠١٦، صفحة ٢٢٧).

بدءاً، وقبل التفصيل في كيفية تآزر المخيلة مع الواقع، لا بدَّ من توضيح بعض المفاهيم الاصطلاحية التي تدور في فلك الدراسة، ومنها:

ـ مفاهيم اصطلاحية:

الأسطورة: هي قصة خرافية أو تراثية ليس لها تفسير طبيعي، تخاطب الانفعال بدلاً من العقل، وتدور حول كائن خارق القدرات، أو أحداثٍ مغرقةٍ في الخيال (فتحي، ١٩٨٦، الصفحات ٢٧–٢٨)، من حيث النشأة، تتفق معظم المصادر على أنَّ الأسطورة نشأت في مرحلة طفولة الشعوب؛ أي في البدايات الأولى للعالم، وهي عند البعض بمنزلة الخرافة والأباطيل والسحر واللامعقول (الجبوري، ٢٠١٢، صفحة ١٥٩)، أي بما معناه أنَّ الأسطورة هي كل ما كان فوق الطبيعي غير المألوف، الذي يرفض العقل تصديقه.

الأسطرة: هي العبور بالواقع المكشوف إلى الأسطوري، عبر المخيال السردي للمؤلف، وتحويل النص إلى نوعٍ تتملكه الأسطورة، بغية صوغِ حدثٍ مُستلٍّ من الواقع (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ٢٧–٢٨)، إذن، هي نوعٌ من التشكيل النصي الخارج عن المألوف، يعمل على تحويل الواقع إلى أسطوري بواسطة التخييل؛ كنوعٍ من الانزياح من المعنى الحقيقي إلى المجازي.

الخيال: هو القدرة على تشكيل صور الأشياء ومظاهر الوجود، وفي الأدب هو استعداد المخيلة لتشكيل الصور الإبداعية، ومنها المتخيل السردي (علوش، ١٩٨٥، صفحة ٨٧).

وفي عملنا هذا، يتجلى دور الخيال في تضخيم الحدث المروي؛ تمهيداً للخروج من الواقع إلى متاهات الخيال، على أن يجسدهُ رمزٌ أسطوري يومئ –بشكلٍ أو بآخر– إلى ما يدور

داخل النص من أحداث واقعية. وبواسطة ملكة التخييل، يعمل الكاتب على توسيع دائرة الحدث، ليصل إلى نصٍ متشكلٍ بصورة جديدة؛ ذلك هو "المتخيل السردي" الذي يعني: "إثارة نوع من الإيهامات أو التمثلات التي تتوجه إلى الأشياء، وتربطها بالخطة التي تمثلها الذات، فتصبح عملاً مقصوداً يجسد وعياً لغيابٍ أو اعتقاداً بإيهام" (بلعلي، ٢٠١١، صفحة ١٧).

ـ جدلية العلاقة بين الأدب والواقع:

إنَّ علاقة الأدب بالواقع ضاربةٌ في القِدَم، وما الأدب إلا مرآةٌ للواقع؛ فكثيراً ما يتخذ الكُتَّاب من المظاهر الواقعية منطلقاً لأعمالهم. فإلى جانب وظيفة الأدب الجمالية والفنية، تبرز وظيفته الخارجية القائمة على كشف المستور، وإزاحة الغطاء عن المسكوت عنه من الأحداث الواقعية؛ غير أنَّ ذلك لا يتأتى إلا بصورة غير مباشرة، إما رمزاً، أو تلميحاً، أو عبر نسقٍ مضمرٍ يضادُّ المعلن – أي قول الشيء والمراد به ضدُّه – في ظل غياب المناخ الحواري الذي يفرزه الخواء الفكري المولِّد للعنف (عاصي، ٢٠٢٣، صفحة ٥٥).

وتأتي الرواية في مقدمة الفنون الأدبية تمثيلاً للواقع واستلهاماً له، متخذةً من قضاياه منطلقاً لتشييد هيكلها السردي، لا سيما بعد أن كسرت القيود التي كبلتها وتخطت الحواجز التقليدية؛ فأصبحت أكثر تطوراً، وأخذت تُكتب بقوالب متعددة. وفي هذا الصدد، أشار أحد الكتاب إلى أنَّ الرواية تحاول دائماً إغناء نصها السردي بالمأثورات الشعبية والمظاهر الأسطورية (مرتاض، ١٩٩٨، الصفحات ١١-١٢)، فيغدو النص الروائي مغلَّفاً بالمرجعيات الثقافية والتاريخية، مانحاً الكاتبَ الحرية في دمج الواقعي بالمتخيل، الأمر الذي يعمل على توسيع أفق النص؛ ليصل –أي الكاتب– إلى نصٍ مصاغٍ بأدبية عالية، استمدَّ موضوعه من التجارب الحياتية.

ثانياً/ الإطار التطبيقي

مدخل:

إنَّ تجسيد الحقائق الواقعية والتاريخية في النص الأدبي هو من الوسائل التي يلجأ إليها الأديب؛ لا لغاية جمالية فحسب، وإنما لغايات إخبارية تُفضي إلى اكتشاف الجوانب الخفية المسكوت عنها، وتزيد من فهمنا للواقع برؤية أكثر شمولية تتعدى الظاهر المعلن إلى المضمر.

وإنَّ تلك الوقائع الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي يضمنها الأديب في فنه، تمكنه من التعبير عن رؤيته للواقع بقالب فني بعيد عن المباشرة والمحاكاة الحرفية، وإنما برؤية فنية قائمة على عمل المخيلة، وهي تجاهد من أجل كشف الغطاء عن مصائر الشعوب، مصورةً إياها بفكر أسطوري؛ قد يكون هذا الفكر خارقاً أو غير مألوف، لكنه يحاكي حقيقةً ما وقعت بالفعل، متخذاً من تلك الأحداث الحقيقية ثيمةً شيَّد من خلالها هيكله السردي الغارق في الخيال، وعمله الذي يتسع للخلق والابتكار؛ على العكس من المحاكاة التي " تمنحُ الشكل لما رأته فقط، أما الخيال فيخلق ما لم يره أبداً" (يوسف، ٢٠٢٣، صفحة ١٤٥).

ففي "متوالية الناصري"، يضعنا الكاتب أمام قضية فهم الأبعاد الواقعية ومسألة تسترها خلف قناع الوهم الأسطوري؛ وهو بهذا يؤسس لمتنٍ سردي بأبعادٍ دلالية تفتح الأبواب أمام القارئ للتأويل واستقراء خفايا النص.

تحظى الرواية بهوية تاريخية؛ نظراً لانفتاحها على وقائع وأحداث تاريخية استلهمها الكاتب لبناء عالم فني تتماهى فيه الحقائق والتاريخ بالتخييل، كنوع من التناص التاريخي؛ فالكاتب يستعين بما اختزنته ذاكرته من أحداث تاريخية، حيث يتخذ التناص صورة هذه المرجعية المستدعية للتاريخ (أحمد، ٢٠١٢، صفحة ٣١٥)، بوصفه ثيمةً اتكأ عليها لخلق نصٍ متخيلٍ، لَبِنَةُ بنائه التاريخُ؛ كونه الحاملَ الذاكراتيَّ لتلك الحقائق التاريخية، وفق رؤية استرجاعية يتوزع فيها الزمن بين الحاضر والماضي، برمزية الواقع المتخيل (محمود، ٢٠٢٣، صفحة ٩٧).

إذن، كشفت هذه الرواية عن حقبة تاريخية معينة من تاريخ العراق بأسلوب سردي عميق، أزاح الغطاء عن بعض الصراعات السياسية والاجتماعية التي كانت ماثلةً آنذاك؛ حيث إنَّ البناء السردي للرواية عبارة عن رحلة عبر الواقع والمخيلة السردية صوب الماضي. وإنَّ الخط السردي التتابعي للرواية ينطلق من حدث تاريخي بنى الكاتب متخيله السردي عليه، مطوراً رؤيته لذلك الحدث بتصور ذهني تجاوز الواقع المألوف إلى غير المألوف، بتناغمٍ بين الواقع والخيال الجامح الذي عمل على تصوير الوقائع برؤية أسطورية أثرت نصه، ومنحت القارئ لذة القراءة، وفتحت أمامه باب التأويل والاستنباط؛ ليصل إلى غاية الكاتب من وراء أسطرته هذه.

إنَّ هذه الثيمة التاريخية التي اتخذها الكاتب نقطة انطلاقه في تشييد منجزه، تبدأ بالعنوان الفرعي المعنون بـ (شاهدٌ من هذا الزمان)، الذي يقولُ فيه: "نحنُ قومٌ نقطن مدينةً، أهمُّ ما يميّزها أنها مسوّرة بالمياه. ترقد على كتف نهر قدسته الكتب السماوية، ارتفع منسوبه حولها، والتفت ضفافه فسوّرت جسدها كمخلوق أسطوري... قيل إنه يهددها منذ نشأتها... إنَّ ما حدث فجأة لهو بأمر من الله، وهو معجزة فعلاً، تضاف إلى خوارق هذه المدينة العجيبة التي هبَّ أهلها؛ الداني يخبر القاصي، فانتشر الخبر كالريح. وهم يهرعون إلى المسطحات المائية، فهي مصدر الأصوات، لكي يتطلعوا بأعينهم كيف انحسر ماؤها وتحوّلت إلى أرض غرين، متباينة التكوين، تملأ وجهها الأخاديد والشقوق والتقعرات، كما لو أنَّ فماً واسعاً ابتلع كل تلك المياه" (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ١٠-١١).

المدينة المقصودة في هذا النص هي مدينة "الناصرية" الواقعة جنوب العراق، وكلُّ ما أدلى به الكاتب من معلومات عنها حقيقة؛ فهي تقع على حافة نهر الفرات، وقد تأسست في أواخر العهد العثماني. تعرضت هذه المدينة في تسعينيات القرن المنصرم إلى ويلاتٍ تضاف إلى ما عانته سابقاً، ومنها قضية تجفيف الأهوار وتغيير مسارها وحجب المياه عن مجراها الطبيعي، وبناء السدود الترابية –أو ما عُرف بالتلال– التي تمنع وصول مياه الأنهار والروافد إلى أهوار الجنوب؛ وذلك تلاعباً بديموغرافية الأرض من قبل السلطات الحاكمة آنذاك لأغراضٍ سياسية.

ولعلَّ سياسة تجفيف الأهوار كانت خطةً وُضِعت وفق قرارات سياسية، ونُفِّذت بجهدٍ هندسي بمعية عددٍ من الوزارات في أكثر من محافظة، من بينها مدينة الناصرية (مركز محافظة ذي قار)؛ حيث تم تحويل مياه نهر الفرات الذي يقع شرق الناصرية إلى مجرى المصب العام الذي يصب في خور عبد الله شمال الخليج العربي عام (١٩٩٢). وبهذا تحول المجرى الطبيعي والتاريخي لنهر الفرات إلى "بزلٍ" لسحب مياه هور الحمار، بعد أن تم قطع مياه مجموعة من الأنهار التي تغذي الهور (الهذال، ٢٠٠٩، الصفحات ٥-٦).

استفاد الكاتب من هذه الحقيقة محولاً مجراها السردي باتجاه المتخيل، وتحديداً باتجاه الأسطوري؛ عبر نسج حكاية أسطورية كان أحد أبطالها (سعيد الناصري). إذ يأخذنا الكاتب من خلال تشكيله السردي الذي يحفل بتعالق الواقع مع الخيال، مسترجعاً أحداثاً تاريخية اتخذها

منطلقاً للولوج إلى فضاء روايته، وبناء هيكلها السردي بخيالٍ واسع المدى، منطلقاً من الهامش إلى المركز. وإنَّ "الصعود بالهامشي من التاريخ وتخيّل تفاصيله، يعني الاقتراب والخوض في تفاصيل المسكوت عنه في التاريخ" (عاصي، ٢٠٢٣، صفحة ٢٦٢)، إنَّ استعانة الكاتب بالمعطى التاريخي في روايته، إن دلَّت على شيء، فإنما تدلُّ على إلمامٍ معرفي مسبق بالحقائق التاريخية؛ إذ اعتمد على وثائق مدونة وشفاهية للوصول إلى تاريخ المكان، مقتفياً الأثر الجغرافي للمدينة، وتحديداً عام (١٩٩١م). وقد استلهم الوقائع التاريخية من منطلق التخييل، وبوعي فني وفق تصوره الخاص، مستفيداً من تلك الحقائق لصوغ حبكته بمنظور إبداعي وبرؤية تخييلية جنحت نحو أسطرة الأحداث عبر توسيع دائرة الحدث التاريخي، وبصورة أسطورية جعلته يبتعد عن النص الأصل بمخياله السردي؛ الأمر الذي مكنه من تصوير الواقعة في إطارٍ غير مألوف.

وإنَّ أسطرة الواقع ما هي إلا استجابة ذهنية لبعض المؤثرات الطبيعية أو المحفزات البشرية الناتجة عن علاقة الإنسان بالبيئة، للوصول إلى نوع من التكامل الإيكولوجي في الوسط المعيش.

أطلق الكاتب العنان لخياله في بناء متخيله السردي من خلال شخصية (سعيد الناصري)، الذي خاض غمار عبور الصحراء مشياً على الأقدام بحثاً عن ضالته: "ومن فرط سيره تقرحت قدماه، وتشقق لحمهما، وكلت ساقاه عن حمل جسده. تفيّأ بعد احتراق تحت وقد الشمس، واستتر بعد قرس شديد من البرد. وكم مضى على إبحاره الصحراوي هذا والتيه وسط هذا الجب؟ لا يدري؛ فقد ترك حساب الزمن ما إن يمم وجهه صوب البريَّة" (عاصي، ٢٠٢٤، صفحة ٢٥).

ابتدأ الكاتب بناء أحداث روايته من استلهامه لواقعة تجفيف الأهوار التي مَرَّ ذكرها؛ لينطلق في تأسيسه السردي لفضاء منجزه الذي يدور صراعه حول مواجهة الشر والقضاء عليه. فشخصية (سعيد الناصري) هي صوت الحق ضد الباطل؛ إذ استوحى الكاتب هذه الشخصية من مدينة الناصرية المكلومة، لتأخذ على عاتقها مواجهة الظلم والقضاء عليه، لا على سبيل ردّ الأذى الذاتي فحسب، بل الظلم بوصفه ظاهرة أينما وُجدت، والبحث عن مواطنه. وتتجلى لنا

مظاهر الأسطرة في عبور (سعيد) الصحراء سيراً على الأقدام، بقيظها وبردها، وليلها ونهارها، بحثاً عن ضالته، وهي مدينة شاع فيها الظلم واستبدَّ. وهذا مما يجاوز حدود التصديق المألوف؛ فمن المعروف أنَّ الإنسان يتأثر بعوامل الطقس (حرارةً وبرودةً)، وله سياقاته المعيشية التي يسير وفقها في تعاقب الفصول. ولقد ذهب الكاتب بخياله بعيداً عن المألوف؛ في خطوة منه لإيضاح تحدي الإنسان لصعوبات الحياة من جهة، ومحاولةً لإضفاء طابعٍ فلسفي على تجربته الواقعية من جهةٍ أخرى، فضلاً عما يلوح به من خطابٍ خفي يُومئ بشكلٍ أو بآخر إلى ضعف المجتمعات وتسليمها بالأمر الواقع؛ سعياً منه إلى استثارة صوت الحق وإعلائه، وشحذ الهمم، وإعلان الرفض للرضوخ والاستسلام لقوى الضلال.

ونلمح جانباً أسطورياً آخر في خضم متاهات الصحراء الواسعة التي أخذ (سعيد الناصري) يجوبها طولاً وعرضاً؛ وفي لحظة إعياءٍ بين الحلم واليقظة، يلتقي بـ "فتيات الصحراء": "كانت الصحراء مثل لآلئ تبرق خادعة، تسقط ضوءها وإشعاعها على هيئات أوجه لثلاث فتيات فاتنات، فتيات صحراويات، انبهر لمرآهن سعيد... أسرعت الثالثة وقربت الجود من فمه، وسكبت قليلاً من الماء، فترطب وسال على صدره المشعر وبلل قميصه المبقع بالملح... وحين أعاد نظره إليهنَّ، لم يجد لهنَّ أثراً؛ لا يعقل أن يكون كل ذلك حلماً..؟" (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ٢٩-٣٤).

ولزيادة الطاقة الإيحائية لنصِّه –أي الكاتب– لجأ إلى أسلوب المرويات العربية القديمة، مثل (ألف ليلة وليلة) وبعض القصص والحكايات الخرافية الأخرى التي سارت على هذا النهج من القص؛ فزاد ذلك من فنيَّة نصه عبر ابتعاده عن المألوف عن طريق مزج الحقيقة بالحلم. فـ"فتيات الصحراء" شخصيات خيالية مبتدعة ذات طبيعة تخييلية؛ وكما هو معروف، فإنَّ الشخصيات تلعب دوراً مهماً في رسم أبعاد الصورة المشهدية في النص النثري (أحمد، ٢٠١٢، صفحة ٢٤)، إذن، هذه الشخصيات وإن كانت أسطورية، إلا أنَّها ساعدت على إضفاء لمسة فنية ذات طابعٍ تشويقي جعلت النصَّ أكثرَ ثراءً؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ هذه الشخصيات ساهمت بشكلٍ أو بآخر في دفع عجلة السرد إلى الأمام، من خلال مشاركتها في الحدث عبر الحوار الذي جرى مع شخصية (سعيد)؛ خاصةً أنَّ الحوار يعمل على "بناء الحدث، وخلق تلاحم بين أجزاء العمل الأدبي" (عكله، ٢٠٢٠، صفحة ١١٦).

إنَّ هذا النوع من الأسطرة المُتَّكِئ على ضربٍ من القص المجازي، الذي يبتدع فيه الكاتب قصة رمزية فرعية داخل تضاعيف القصة الأصل، كنوع من السرد الإطاري، يبعث الحيوية والتشويق، ويُضفي نوعاً من التعددية التي تفسح المجال لتداخل الحاضر مع الماضي.

وملمحٌ أسطوريٌّ آخر يتراءى لنا تحت سماء الصحراء المترامية الأطراف؛ حيث "ازداد سعيد قوة، فواصل المسير على غير هدى... حتى ظهر له رجل يمتطي حماراً ويسوق قطيعاً منها وسط هذا الجوف الواسع من الأرض الخلاء، والسماء المفتوحة كقبة متناهية الأبعاد. يسوق حميرَه على عجل. استوقفه مستقبلاً إياه، فأحسن الرجل استقباله... قال الرجل:

ـ إلى أي الجهات أنت راحل يا فتى؟

ـ لا أدري لكني أبحث عن ضالة لي؟

ـ وما هي ضالتك يا أخي، فقد يكون بوسعي مساعدتك؟

ـ مدينة هي. طال بي البحث عنها؟

ـ أي مدينة في رأسك يا فتى، وأنت في الصحراء؟" (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ٣٥-٣٦).

إنَّ قوى الطبيعة وتغيراتها المناخية تتحكم في تنقل الإنسان بين الأمكنة، وتكييفه للعيش بصورة طبيعية، غير أنَّ ما نجده في النص أعلاه من صراع الإنسان مع عوامل الطبيعة وتحديه لها، يُعدُّ أمراً غيرَ مألوفٍ توقُّعه، وخارجاً عن حدود المنطق العقلي؛ حيث يتجلى الفكر الأسطوري في هذا النص عبر شخصية (المكاري)؛ ذلك الإنسان البدائي مع قطيع الدواب في تلك الصحراء بأطرافها اللامتناهية وقسوتها، حيث لا ماء ولا شجرَ، مما يصعب على الإنسان تحمله في ظل احتياجاته الضرورية للبقاء. وهذا الفكر تلعبُ الطبيعة فيه دوراً كبيراً في تشكيله، إذ يبتدع الكاتب رموزه الأسطورية مرةً أخرى، متخذاً من ثيمته التاريخية سالفة الذكر وسيلةً لابتكار عالمٍ مغاير. إنَّ هذا التخييل الأسطوري الذي لجأ إليه الكاتب بإقحامه في نصه – على الرغم مما ينطوي عليه من خرافة– إلا أنه مُتخمٌ بالطاقة الفنية التي منحت النص فاعليةً من خلال الحوار الذي جرى بين (سعيد) ورجل الصحراء، ودوره في تعميق المعنى وكشف

الحالة الفكرية للشخصية؛ الأمر الذي ساعد في تنامي الأحداث وتماسكها من جهة، وعمل على توضيح فكرة النص وإيصالها للقارئ من جهة أخرى.

لقد حرص الكاتب في رسم متخيله السردي على أن يُقحم كل ما هو فوق الطبيعي منطلقاً من الواقع، ومثاله: "استدار سعيد نحو جهة المدينة التي بدت تائهة وسط خط الأفق. حثَّ خطاه على السير باتجاهها... هيكلٌ كبير يخيم وسط الصحراء التي لا ماء فيها ولا شجر. هيكلٌ متماسك في أرضٍ بور، محاطة بكتمانٍ غامض ورهيب، أدخلها يا سعيد يا بن الناصري" (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ٤٤-٤٦).

تاريخياً، إنَّ مدينة "شرهان" -التي دارت فيها أحداث الرواية- مأخوذةٌ من "قرية فرحان"، وهي من أكبر وأشهر القرى المحيطة بالناصرية، وهي قرية حقيقية كانت موجودةً بالفعل في الخمسينيات. أما شخصية (شرهان) في الرواية، فهي مستوحاةٌ من شخصية (فرحان)؛ وهو رجلٌ حقيقي كان يعمل "مكوجياً" للملابس في المدينة الأصل، واستطاع هذا الرجل بناء مدينة استحدثها هو وسماها باسمه الحقيقي (قرية فرحان)، وفرض سيطرته على أهالي المدينة الجديدة بقوانين جائرة[1]، غير أنَّ الكاتب بخياله الواسع راح يرسم متخيله مطوراً للحدث التاريخي؛ ليحوك لنا من هذه الواقعة تشكيلاً سردياً يحفل بالمبالغة والغلو في تصويره للحدث. ويظهر ذلك من خلال النص أعلاه، في وصفه لتلك المدينة على أنها مشيدة في وسط الصحراء، وهي تعج بمظاهر الحياة الإنسانية ومتطلباتها التي يصعب التمتع بها في صحراء قاحلة؛ في خطوة منه لبناء عالمٍ يفوق الواقع. إنَّ هذا التوظيف الأسطوري النابع من النشاط الذهني للكاتب -الذي وصف تلك المدينة بأنها "هيكل تائه" وسط الصحراء البور- كان وسيلةً للكشف عن خلل المنظومة البيئية وانعكاسها على المظاهر الحياتية للمجتمع، وقصور الحكومات القائمة آنذاك، وأساليبها الخاطئة التي غيرت الحقائق بدافع التطور الحضاري على حساب الطبيعة وديموغرافيتها.

إذن، إنَّ تغليف الواقع بالأسطورة جاء بمنزلة القناع الذي يخفي خلفه انغلاقاً فكرياً دمَّر البنيات الحياتية، وأحالها إلى بيئات تفتقد أبسط مقومات الحياة.

(١) حوار مع الكاتب بتاريخ ٢٠٢٥/٧/٣ الساعة ٦:٤٥.

595-612

وثمة ثيمة واقعية أخرى ينطلق منها الكاتب في تشكيل متخيله السردي، وهي مسمى (أبي جداحة): "فما غفلوا يوماً سرَّ أبي جداحة وعالمه المريب والخفي الذي يفصلهم عن مرتفع التراب الذي صُلب بتقادم الزمن وهطول الأمطار" (عاصي، ٢٠٢٤، صفحة ٨٨).

نوهنا سابقاً إلى أنَّ مدينة الناصرية شُيِّدت في مكان منخفض عند مجرى نهر الفرات الذي يحدها من جهة، ومن جهة أخرى "بحيرة أبي جداحة"؛ وهي بحيرة تقع على بُعد نصف ساعة من مدينة الناصرية، وتنتهي إليها مياه نهري دجلة والفرات. هذه البحيرة تهدد المدينة بالفيضان، وقد سُميت بـ" أبي جداحة "(أو أبو قداحة) لأنها "تقدح" الشرر (الكرملي، ١٩١٢، صفحة ٢١٩)، إنَّ فكرة تشييد المدينة على ضفاف نهر الفرات في المنطقة المنخفضة بُنيت على أساسٍ وفكرةٍ عسكرية؛ فهناك تلٌّ ترابي يخفي خلفه مستنقعات مائية هي الأهوار. هذا التل الترابي عرضةٌ للهشاشة بسبب قربه من المياه، وإذا ما تعرض للمسحاة فإنه يغرق المدينة. وقد صُمم من قبل العثمانيين سابقاً لتجنب ثورة عشائر الناصرية الثائرة[٢]. يظهر أنَّ حكاية مدينة الناصرية قد شغلت المؤلف؛ فراح ينقّب في التاريخ ليحوك لنا تشكيلاً سردياً يعجُّ بالحقائق التي فتحت الباب على مصراعيه أمام مخيلته، مستلهماً هذه الشذرات التاريخية المتعلقة بمدينة الناصرية وجغرافيتها؛ لينطلق في تشييد نصه السردي. و(أبو جداحة) واحدٌ من هذه الشذرات التي استوحى الكاتب من خلالها أحداثاً خيالية فاقت المألوف؛ فمرةً يصور إياه بصورة كائنٍ مخيف غامض: "إنَّ شلةً من الفتية شابهم الشك، وغرر بهم الطموح والجنوح، فدفعوا بمن ناب عنهم، فراح يجري خفيةً إلى الكائن الرابض في الأقاصي وما عاد قط، فتيقنوا أنَّه اختفى داخل جوفه" (عاصي، ٢٠٢٤، صفحة ٨٨)، وأحياناً أخرى، يصفه بالكائن الأعمى سريعِ الغضب المليء باللعنة، فمن يدخله: "ستسقط عليه لعنة الشياطين والعفاريت والجن المتربص به، وأنَّ الله حماهم لأنَّهم لم يجرؤوا على اقتحام هذه المحرمات؛ كون أبي جداحة كائناً أعمى حين يضطرب، لا يفرق بين الأمرين" (عاصي، ٢٠٢٤، صفحة ٩١)، ومرةً يجعله مكاناً مقدساً، مبيناً أنَّ من ينتهك حرمته يهلك: "ربِّ احمنا من شرِّ أبي جداحة، فهو مُغرقنا جميعاً.. ربنا لا تحاسبنا على ذنبٍ لم نقترفه، وما لنا والمعصية" (عاصي، ٢٠٢٤، الصفحات ٩٠-٩١).

(٢) حوار مع الكاتب بتاريخ ٢٠٢٥/٧/٣ الساعة ٦:٤٥.

نلاحظ في النصوص المقتطعة من الرواية –المستندة إلى واقعة حقيقية وثّقها التاريخ– نصوصاً صيغت بجموح الخيال وابتعاده عن الواقع المألوف؛ وهو أسلوبٌ لجأ إليه الكاتب متعمداً لكي يوسع دائرة الحدث الواقعي وأسطرته، فتتشكل مفارقةٌ بين الحقيقة والأسطورة عبر بناء عالم خيالي انبثق من الواقع. إنَّ هذا البناء الأسطوري القائم على قوانين تناقض قوانين الطبيعة المعروفة، مخترقاً المقاييس المألوفة كافة، يُعدُّ بالنسبة للقارئ غيرَ مألوفٍ ويستحيل تصديقه؛ وذلك من خلال عرضه أحداثاً ليس لها من الحقيقة نصيب، إنما هي وسيلة لإثارة انفعال القارئ وإدهاشه من جانب، وتعرية المستور كاشفاً الغطاء عن سياسة الحكومة العراقية في فترة التسعينيات بصورة غير مباشرة من جانبٍ آخر. الأمر الذي مكنه من تأسيسِ نصٍ أسطوري أفصح فيه عن رؤيته الذاتية للعالم من حوله عبر الاتكاء على رموز تاريخية، ليصل إلى تشكيله السردي المتجاوز المألوف، الذي يومئ بشكل أو بآخر إلى طبيعة العلاقة بين السلطات القائمة آنذاك وقراراتها، وبين سكان المدينة المغلوبة على أمرها.

لقد اتخذ الكاتب من ثيمته التاريخية (أبو جداحة) وتصويره لها رمزاً لتلك السلطات الجائرة؛ فما توارى خلف البنية السطحية للنصوص أعلاه هو ما يكتنزه ذهن الكاتب وتصوره لتلك الأيادي التي جارت على حرمة المكان وخصوصيته؛ فهي التي ما إن يظهر من يقف بوجه قراراتها المجحفة حتى يختفي ولا يبقى له أثر، في إشارةٍ إلى سلوكها القمعي، واصفاً قراراتها بالشيء المحرم تجاوزه، وما إن يحدث ذلك حتى يعمَّ الشرُّ ذلك المكان. إنَّ هذا التضخيم للحدث الواقعي يخرجه من دائرة محدوديته وضيق أفقه إلى متسع أكثر رحابة، قادراً على التعبير عما يجول في ذاكرة الذات الحالمة بحاضرٍ علَّه يكون على النقيض مما مضى.

إنَّ هذه النصوص المسترجعة للأحداث التاريخية تنمُّ عن الفهم المعرفي للكاتب وقدرته على التشكيل السردي، من خلال استلهام التاريخ لبناء أحداث الرواية بقالبٍ أسطوري، وهو نوع من التناص التاريخي الذي لجأ إليه الكاتب، الأمر الذي أغنى الرواية ومنحها خاصية الإخبار من جهة، والتوثيق التاريخي من جهةٍ أخرى.

الخاتمة:

١- استطاع الكاتب جاسم عاصي المزاوجة ما بين الواقع والخيال في بناء حبكته، برؤية تنمُّ عن خيالٍ واسع استطاع من خلاله نقد الواقع، مستلهماً مخيلته في تطوير الأحداث وأسطرتها؛ الأمر الذي منح منجزه عمقاً فنياً وجمالياً.

٢- نجح الكاتب في إيهام القارئ بواقعية ما يقرأ، وبأنَّ ما بين يديه أحداثٌ وقعت بالفعل، وهي على العكس من ذلك؛ وهذا ما يُعرف بـ "المتخيل السردي" الذي يُظهر حذق الكاتب ورؤيته التي تنمُّ عن وعيٍ بما يتطلبه النص الأدبي حين يتخذ من الواقع منطلقاً له.

٣- لم يكن جاسم عاصي ناقلاً للحدث الواقعي أو التاريخي فحسب، إنما كان يأخذ المعلومة التاريخية أو الواقعية ليؤسس عليها مفهومه الجديد، ويطورها إلى شيء آخر؛ وهذه هي وظيفة السرد الحقيقية.

٤- تمكن الكاتب من كشف الواقع الراهن وتعريته من خلال الوقائع التاريخية والأحداث الحقيقية التي بنى منها متخيله السردي، والتي أفصحت عن ماضٍ مضطرب وحاضرٍ أليم.

٥- تُعدُّ هذه الرواية مدونة ذات مغزىً تاريخي؛ فقد تمكنت من إخبارنا بما سكت عنه التاريخ عبر نصٍ مبتكرٍ محبوكٍ بعناية، ومستلٍّ من الواقع بعد خضوعه لسلطة السارد وتصوره الذهني.

٦- اختار الكاتب زاويةً للسرد، ألا وهي التاريخ، كوسيلة لفهم الماضي؛ ناقلاً للقارئ أحداثاً ووقائع تاريخية بقالب أسطوري، مسلطاً الضوء على تلك الحقبة التي اتسمت بالغموض.

٧- يتأرجح خطاب الرواية بين زمنين: ينقب في الماضي أولاً، ويوازي الحاضر ثانياً؛ ليخلص في النهاية إلى رسالة مفادها أنَّ الزمن الحاضر يوازي الزمن الماضي، والعبرة في ذلك أنَّ الثاني استمرارٌ للأول.

٨- عملت العناوين الفرعية للرواية، إلى جانب العنوان الرئيس، على دفع عجلة الحدث المركزي إلى الأمام، وتشييد نصٍ يحفل بتداخل الواقعي بالأسطوري.

٩- يُنبئ المنجز عن إلمامٍ معرفي لدى الكاتب بتلك الحقائق التاريخية؛ الأمر الذي مكنه من كشف الزوايا المظلمة التي لم يُصرح بها علناً.

١٠- معظم الإشارات التاريخية التي أومأ إليها الكاتب بصورة غير مباشرة توحي بصراعاتٍ سياسية كانت قائمةً آنذاك.

١١- نستطيع أن نقول إنَّ تسلسل أحداث الرواية بخطها السردي التتابعي، ومراحلها التاريخية المنزاحة إلى الجانب الأسطوري، قد حقق خصوصية الرواية في تعرية الواقع ونقده، وكشف ما سكت عنه التاريخ.

المصادر والمراجع:

١- ابراهيم، عبدالله، (٢٠١٦)، موسوعة السرد العربي ج٥، قنديل، دبي_ الإمارات العربية المتحدة.

٢- أحمد، سامي شهاب، (٢٠١٢)، النزعة القصصية في شعر ابن الشبل البغدادي من خلال تقانة المشهد، مجلة جامعة كركوك/ للدراسات الانسانية، العراق، المجلد(٧)، العدد(٢): ٢٤.

٣- أحمد، نفلة حسن، (٢٠١٢)، التحليل السيميائي للفن الروائي- دراسة تطبيقية لرواية الزيني بركات، دار الكتب والوثائق القومية- المكتب الجامعي الحديث، العراق.

٤- بلعلي، آمنة، (٢٠١١)، المتخيل في الرواية الجزائرية من التماثل إلى المختلف، دار الأمل، الجزائر.

٥- بن يوسف، رياض، (٢٠٢٣)، المحاكاة والتخييل من الفلسفة إلى النقد الأدبي، مجلة العميد، الجزائر، المجلد (١٢)، العدد (٤٨): ١٤٥.

٦- الجبوري، عبد الرحمن محمد محمود، (٢٠١٢)، بناء الرواية عند حسن مطلك- دراسة دلالية، دار الكتب والوثائق القومية- المكتب الجامعي الحديث، العراق.

٧- عاصي، جاسم، (٢٠٢٣)، التخييل في الرواية العربية ج٢، مؤسسة أبجد، بابل- العراق.

٨- عاصي، جاسم، (٢٠٢٤)، المجاورة والانزياح - تطبيقات حول توظيف الموروث في النص، أبجد، بابل- العراق.

٩- عاصي، جاسم، (٢٠٢٤)، متوالية الناصري_ ما آلت إليه المخطوطة على يد الناسخ، تموز_ ديموزي، دمشق.

١٠- عاصي، جاسم، التخييل في الرواية العربية ج١، دار أبجد، العراق_ بابل، (٢٠٢٣).

١١- عكله، محمد خلف ادهام، (٢٠٢٠)، بلاغة توظيف الحوار في الشعر العربي (أبو فراس الحمداني نموذجاً)، مجلة جامعة كركوك/للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد(١٥)، العدد(٢): ١١٦.

١٢- علوش، سعيد، (١٩٨٥)، معجم المصطلحات الأدبية، دار الكتاب اللبناني بيروت_ لبنان، الدار البيضاء- المغرب. سوسبريش.

١٣- فتحي، ابراهيم، (١٩٨٦)، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس.

١٤- الكرملي، أنستاز ماري، (١٩١١)، ربوع المنتفق على الغراف، مجلة لغة العرب، العراق، المجلد(١)، العدد(٦): ٢١٩.

١٥- محمد، فرج ياسين، (٢٠٢٠)، توظيف الأسطورة في القصة القصيرة، كفاءة المعرفة، عمان_ المملكة الأردنية الهاشمية.

١٦- محمود، عبد الرحمن محمد، (٢٠٢٣)، المعنى السردي- رواية الواقع برمزية الواقع الروائي رواية (خرائط النسيان) إنموذجاً، مجلة جامعة كركوك/ الدراسات الانسانية. العراق، المجلد (١٨)، العدد (٢): ٩٧.

١٧- مرتاض، عبد الملك، (١٩٩٨)، في نظرية الرواية_ بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت.

١٨- الهذال، يوسف محمد علي حاتم، (٢٠٠٩) تجفيف الأهوار وأثره في اختلاف الخصائص المناخية لجنوبي العراق، مجلة ديالى، العراق، العدد (٤١): ٥-٦.